

رمضان شهر الأكر



رمضان شهر الأكر في إحسان إلى خلقه بتقديم منهج متكامل في تناول أبعاد الإنسان، يسير في التطبيق، قويم في المحتوى وقيّم في النتائج. قال مولانا الإمام أبو محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين وسيد الساجدين (ع) في صحيفته المعروفة بزبور آل محمد (ص) في دعائه لاستقبال شهر رمضان المبارك: الحمد الذي هدانا لحمده، وجعلنا من أهله، لنكون لإحسانه من الشاكرين، وليجزينا على ذلك جزاء المحسنين. والحمد الذي حيانا بدينه، واختصنا بملته، وسبّلنا في سبّل إحسانه، لنسلكها بمنزلة إلى رضوانه، حمداً يتقبله منا، ويرضى به عنّا. والحمد الذي جعل من تلك السبّل شهراً، شهر رمضان، شهر الصيام، وشهر الإسلام، وشهر الطهور، وشهر التمحيص، وشهر القيام (الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) (البقرة/ 185). فإنّ الإنسان سبحانه وتعالى برحمته الواسعة والخاصة لأمة النبي المنتجب خاتم الأنبياء الهادين المهديين الذي أصبحت شريعته الشريعة الخاتمة الكاملة إذ قال عزّ من قائل: (اليوم أكملت لكم دينكم ورضيت لكم الإسلام ديناً) (آل عمران/ 85)، وقد فرض صيام شهر كامل على القادرين عليه في كل سنة من العمر مادام الإنسان حياً فاعلاً متفاعلاً مع ظروف الحياة قادراً على الإنتاج والإبداع، محتاجاً إلى ما يرفد مسيرته التكاملية المعبأة بكل عناصر الخير والشر والملغومة بالآفات والشهوات والمرديات والموانع التي قد تحول بينه وبين الزلفى والرفق في سلّم الكمال لأنّ تعالى هكذا سن للإنسان طريق التكامل ما بين الأجراس والمصاعب والمصائب. قال تعالى: (الذي خلق السموات والأرض ليبدلنّ ما يشاء من خلقه ولا يدرى يومئذ لأين هم المرجعون) (الأنبياء/ 35). وقال: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون) (العنكبوت/ 2). ومن هنا كانت روافة الهداية الإلهية ترفد هذا الكائن - الذي تشرّف بيد العناية الإلهية التي كونته: (فإذ ساءل يئساً ونفخاً من ربه) (ص/ 72)، وأمرت الملائكة بالسجود له: (فقعوا له ساجدين) وتضحّ له كل عناصر التكامل باتجاه تحقق الهدف الإلهي العظيم من خلق هذا الإنسان - الذي يمكن أن يتخبط في هذه الدار (دار البلاء والعناء) والنفوس الأمارة بالسوء التي بإمكانها أن تمارس الإفساد وسفك الدماء المحرمة وإبادة النفوس البريئة كما أفصح الملائكة عن هذه الحقيقة الخطيرة بقولهم الملهم من عند رب العزة: (أتجعل فيهما من يفسد فيها ويسفك الدماء) (البقرة/ 30). وهكذا أصبح رقد هذا الإنسان المحاط بكل هذه الشوائب والمصاعب وتقديم سبّل الإحسان إليه عنصراً من عناصر تكامله المطلوب بكل تأكيد واللازم بحسب فهم كل لبيب. ومن هنا نفهم مغزى ما أفاضه سيد الساجدين علينا حين نتأمل فيه مرة أخرى: "وسبّلنا في سبّل إحسانه، لنسلكها بمنزلة إلى رضوانه، حمداً يتقبله منا، ويرضى به عنّا". نعم هذا هو الهدف الكبير الذي يراد تحقيقه لكل إنسان من خلال سلوك سبّل الإحسان الإلهية وهي سبّل الكمال الإنساني حسب الرؤية

القرآنية والأطروحة الربانية للإنسان. وهي مئة من المنن الإلهية الكثيرة التي قال عنها عز وجل: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (النحل/ 18). وتنتهي بالإنسان إلى رضوانه تعالى للإنسان. قال تعالى: (وَرَضُوا أَنْ يُرْتَقَى إِلَيْهِمْ) (التوبة/ 72)، وهو تعبير عن منتهى التكامل الممكن للإنسان أن يرتقى إليه. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْكُنُوا أَسْوَاقَ اللَّهِ لِيَتَّخِذَ اللَّهُ رِجْلاً لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ رَاضِينَ مَرْضِينَ * فَادْخُلُوا فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلُوا فِي جَنَّاتِي) (الفجر/ 27-30)، وقال: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البينة/ 8). والنفوس لا تبلغ مرتبة الاطمئنان إلا من خلال برنامج تربوي متكامل يأخذها باتجاه مقام الرضا وقد لخص القرآن ذلك ببرنامج التقوى حيث قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (الطلاق/ 2-3). والصيام هو أحد روافد التقوى المهمة في هذا البرنامج وقد أفصح عن ذلك الذكر الحكيم قائلاً: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/ 45-46). ومن هذه الآية نفهم أن الرجوع عبارة عن عملية تربوية تدريجية مستمرة تحقق للإنسان الراجع إلى الله صفة الاطمئنان المطلوبة له ولا تتحقق إلا من خلال بوابة الخشية إلى الله تعالى: (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (البينة/ 8).